المغرب في سير أبطاله

الثقافة المغربية - عدد 3 - اكتوبر 1941

تتفوق كل أمة في منح من مناحي الحياة عن غيرها من الأمم، فهذه أمة يدق تفكيرها، وتلك يرق شعورها، وأخرى تقوى سيادتها، وهكذا الأمم التي أولدها التاريخ أجيالا ليبقى منها هذا الماضي الذي نعيه اليوم بين صفحات الكتب أو مخلفات الآثار.

فمصر الفرعونية، وإن كانت حياتها زاخرة في شتى المناحي، يظهر تفوقها جليا في هذه السلسلة من نماذج التماثيل التي غفلت عنها يد الحدثان لتبقي لنا منها صورة واضحة عن مصر في أقدم عهودها.

واليونان التي ساهمت في كل مناحي الحياة على اختلاف أنواعها وتباين وجهاتها يظهر جليا تفوقها في الميدان الفكري بما خلفت لنا من آثار لم يقو الرقى البشري أن يجتازها إلا بخطوات يسيرة.

والرومان أمة شاركت في ما اضطرت به حضارة اليونان، ولكنها أظهرت تفوقها في ناحية واحدة، هى ناحية التشريع.

والعرب أمة التوحيد التي أشادت حضارة في أقرب وقت، وامبراطورية في أوسع مدى، يظهر جليا تفوقها في ميدان البلاغة، فكانت معجزة من معجزات البيان؛ وعلى المقياس يمكن أن نستعرض كل أمم الأرض. لا في الماضي فحسب، بل وفي الحاضر أيضا؛ فإن الأمة تسعى أن تبرز في كل مضمار وتشارك في كل ميدان، وقد تنجح في محاولتها تلك إلى حد ما، ولكن طابع تفوقها يتجلى دوما في ناحية دون بقية النواحي.

والمغرب أمة شاركت في الحضارة القديمة، وأشادت امبراطورية كانت تسيطر فيها على ضفة لبحرية المدنية الإنسانية - البحر المتوسط - فما هى الناحية التي تفوقت فيها، والتي نستطيع أن نلمسها من أول نظرة نلقيها على تاريخها الحافل؟

لقد شاركت الأمة المغربية في المناحي العقلية، فكان منها المفكرون، وكان منها الأطباء، وكان منها المهندسون، وكان منها الكتاب والشعراء.

وشاركت في المناحي الاجتماعية، فلها جولات في التشريع، ولقادتها آراء في الإصلاح.

وشاركت في الفنون، فلها الموسيقى الجميلة، والمباني الرفيعة، والزخرفة السنية، وشاركت في المناحي الاقتصادية، فكانت في عدة عصور من التاريخ مصدر رزق لكثير من الأمم الأخرى، وكانت صناعاتها تجوب كثيرا من الأمصار.

فشاركت في الميدان السياسي، وكانت خلال عصور وعصور محط توازن دولي بين الشرق الإسلامي وأوربا المسيحية، ولم تحافظ على كيانها خلال تلك الآماد الطويلة فحسب، بل كثيرا ما كانت تفرض إرادتها فرضا على جيرانها الأقربين والأبعدين.

فما هى الناحية التي يستطيع المغرب أن يبرز فيها تفوقه خلال عصور مضت؟ إن الإجابة عن مثل هذا السؤال تتطلب تفكيرا عميقا في الماضي المغربي، واستعراضا دقيقا لكل ما أنتجته الأمة المغربية في مختلف الميادين. غير أن ناحية واحدة لن يعسر على المفكر أن يلمس تفوق المغرب فيها، فصداها يرن في آذاننا كلما قلبنا صفحة من صفحات الماضي المغربي، فإذا أردنا أن نجمل تلك الناحية في كلمة واحدة، كانت تلك الكلمة هى : البطولة.

ومن الطبيعي أن تتفوق الأمة المغربية في البطولة، فكل شيء ينادي في المغرب بالبطولة، ويلهم البطولة، ويصور البطولة، فهناك هواء صحي معتدل، وهناك سلسلة من الجبال قل نظيرها، وهناك عنصر أصيل حافظ على مقوماته الأمد الطويل، وهناك وحدة جغرافية تدعو الفطرة إلى المحافظة عليها، وهناك فوق هذا وذاك موقع ممتاز بين شتى الدول التي تعددت منازعها وتلونت مصالحها.

فلم تكن الحروب التي شنت بهذه البلاد حروب جماعات، أو بالأحرى حروب عصابات تشن الواحدة الغارة ضد الأخرى، وسرعان ما تخمد نار الحرب دون أن تسجل صفحة واحدة من صفحات البطولة، بل كانت الحروب المغربية في كل الأوقات حروب البطولة، يظهر منها تفوق المغربي في الميدان الحربي، ويسلم المحاربون الأبطال والمدنيون القيادة لا لرجل سياسي فحسب، ولا لرجل اجتماعي لا غير، بل لرجل أول ما يتصف به البطولة الحربية.

فكانت كل عصور التاريخ المغربي عصور بطولة من أقدم عهودها إلى اليوم، وإن البطولة هذه لتتغلغل في حياتنا بصورة أن استعراضا بسيطا لأطوار الماضي المغربي يجعلنا أمام نظرية ثابتة، هى أن كل عصر من عصور تاريخنا يمثله بطل خير تمثيل، فيمكنك أن تستخرج من صفاته وأحواله جميع ما ينفعل به ذلك العصر من نزعات ويتمخض عنه من انقلابات.

ولكى نستعرض صور التاريخ المغربي على ضوء هذه النظرية يجب ألا نغفل اعتبارين أساسيين في حياتنا.

أولهما:

أن المغرب هو هذه البلاد التي تمتد على طول شمال افريقيا من حدود مصر إلى البحر الأبيض؛ فمن هذه البقعة الكبرى يكون الموقع الجغرافي - المغرب الكبير - وإن كان القلب النابض لهذا المغرب الكبير في أغلب عصور التاريخ هو مغرب اليوم، وذلك لما يمتاز به في موقعه من قوة حصنته بجبال الأطلس، ومن كثرة اعتداله، فاحتفظ المغربي على كيانه، وتشبث بوحدته، وحرص على سيادته.

ثانيهما:

أن قوة المغرب النفسية - إن صح هذا التعبير - سرعان ما تؤثر فيمن يستقر فيه من غير أبنائه، فيصبح مغربيا في تفكيره ونزعاته ومشاريعه، فإذا تولى سلطة أو إدارة مصلحة

عامة كان مغربيا صميما فيها، فلن تجد أى فرق بين سيرة البطل الذي ينتمي إلى الدم المغربي القح أو البطل الذي ينتمي إلى أصل عربي؛ فإن القوة النفسية المغربية تكون من كل جانب منهما البطل المنشود لعصر من العصور أو لانقلاب من الانقلابات.

ومن أقوى الدلائل على تمكن روح البطولة في النفس المغربية وتقديسها لدى عموم الطبقات أن تجد هؤلاء الأبطال الذين نود اليوم أن نستعرضهم بإيجاز متتابعين في كل العصور، فليس هناك عصر أو دولة لم يكونها بطل من ناحية حربية، ووضع لها اتجاها من ناحية فكرية أو اجتماعية وتمثل في سيرته جميع حوادث عصره، وتمثل في عصره جميع صفاته الشخصية.

فإذا أردنا أن نستعرض استعراضا وجيزا هؤلاء الأبطال على ممر العصور أول ما نجد أمامنا بطل قرطاجنة هانيبال العظيم الذي حارب أمة اليونان وانتصر عليها عدة انتصارات؛ هذا البطل يمثل أقوى تمثيل هذا الصراع الذي اشتد خلال أربع قرون بين قرطاجنة الإفريقية وروما الأوربية.

يمكنك أن تستخرج جميع الحركات التي سادت المغرب الكبير خلال هاته الفترة من حياته من دراسة لشخصية البطل هانيبال، فلقد كان بطلا مغوارا، وكانت الحروب القرطاجنية الرومانية حروب بطولة وشجاعة نادرتين، وكان خطيبا، وكانت الخطابة تلعب أكبر دور في تسيير شؤون الأمة إذاك، وإلى جانب ذلك ظل التاريخ المغربي في هذه الأجيال يدور حول قضية واحدة، هى القضية التي حارب من أجلها الشعب المغربي بقيادة بطله هانيبال.

وغزا الإسلام هاته البلاد، فقاومته بطلة وأظهرت من البطولة ما صور للشعب أنها كاهنة، مجهودها فوق المجهود البشري، ولكن حياة هاته البطلة المغوارة تنتهي بما انتهت إليه المقاومة المغربية لهذا الدين الحنيف، فإن السلطة التي قاومت الإسلام باعتباره فاتحا جديدا سرعان ما استسلمت عندما أدركت أن الدين الحنيف لا يغزو البلاد وإنما يغزو

الأرواح، فسقطت في المعركة وهى تنادي أبناءها بالإسلام وتحض أبطالها المحاربين على اعتناقه، فكانت خاتمتها إيمانا مطلقا موحدا، وكانت خاتمة المقاومة المغربية إيمانا مطلقا موحدا بالإسلام وتعاليمه.

ولا يكاد يدخل المغرب في حياته الجديدة حتى نجد بطلا مغربيا مسلما تفوق شهرته وعظمته قواد عرب مختلفين. ففي سيرة طارق بن زياد ما يضيء لنا العصر الإسلامي الأول للمغرب ويرينا صورة جديدة من البطولة المغربية التي طيفت الآفاق، فلقد دخل الأندلس ينشر دين الله ويدعو إلى اعتناق هذا الدين الذي حضت الكاهنة، وهى في النزع الأخير، أبناءها على الإيمان به.

فإذا ساد الإسلام أغلب جهات المغرب، أخذ المغرب يسترجع كيانه السياسي من جديد، وأخذ يفكر أن ينفصل عن الأمم التي تود أن تديم سيطرتها السياسية عليه؛ فكان في وصول مولانا ادريس الأكبر خير فرصة لإظهار تمسك المغرب بالإسلام من جهة، ورغبته في محافظته على وجوده المعنوي من جهة أخرى. فتدعم العرش المغربي من جديد، وأخذ هذا البطل المغربي الأصل العربي النزعة يقضي على الجرثومة الأخيرة من وباء الردة، ويقاوم ذوي الفتنة والشغب، ويستجمع عناصر هذا الشعب البطل مما أخاف خليفة المشرق، فدبر من المكيدة ما أسقط هذا البطل في مقتبل عمره وخلال جهاده المرضي. ولا يكاد الزمان يتقدم قليلا حتى يظهر بطل جديد هو يوسف بن تاشفين، يوحد المغرب، ويحارب أعداء الإسلام، ويعلن من المبادئ ما سيطر على عصره.

فليست مقومات العصر المرابطي إلا تلك الآراء التي اعتنقها بطله ابن تاشفين؛ فكان العصر المرابطي عصر بساطة كما كانت سيرة بطله، وكان عصر اهتمام بنشر جزئيات الإسلام كما كان يهتم ذلك البطل في حياته وإدارته لشؤون البلاد.

فإذا جاء البطل عبد المومن، كانت وحدة البلاد قد ضمنت، واستقرارها قد تم، فيشرع البطل الجديد في نشر ألوية العلم، ويأخذ بمذهب السنة الفكرية، فيسمح بترويج كثير

من الآراء، ويعطي العقل من الحرية ما يعطى له كلما استقرت شؤون الأمة.

فكان بذلك العصر الموحدي عصر استقرار سياسي وثورة فكرية، ولم يكن إلا ذلك مقتبسا من نفسية بطله ومؤسس دعائم عرشه عبد المومن.

ويأتي العصر المريني، فإذا بطله عبد الحق رجل يحارب خصومه الموحدين ويعرف كيف يحاربهم، ويدرك أن وحدة الرأي والتعاون في العمل والاستماتة في سبيل الله وحدها طريق الانتصار؛ وتلك هى الآراء التي سادت العصر المريني والتي بدافعها حارب المغاربة تحت اللواء المريني في أرض الأندلس بقيادة الأبطال المرينيين.

فإذا تقادم العهد بالعرش المغربي، وأخذ البلى يتسرب إلى دعائمه، وأراد الجوار أن يغتنموا الفرصة وينقضوا على البلاد، ظهر بطل وادي المخازن القائد المنصور السعدي يسترجع وحدة البلاد ويعيد لها ازدهارها.

وعندما أغير على أطراف البلاد، وأخذت عناصر الفتنة تنمو في داخلها، ظهر البطل مولاى اسماعيل، فأعاد كل شيء إلى نصابه في الداخل، وألقى في البحر من اقتص أطراف البلاد.

وإن في سيرة هذا البطل وحسن إدراكه للأمور ما برهن للعالم على حيوية الأمة المغربية؛ فلقد وجد في عصر تدعمت فيه أصول المدنية الأوربية المعاصرة، ولكن بالرغم عن بعد المغرب عن أسباب تلك الحضارة ومقاييسها، استطاع بموهبة هذا البطل المغوار أن يقول للعالم الأوربي الجديد قولته فيخشاه ويسعى إلى التقرب منه.

هؤلاء هم بعض أبطال المغرب، وليست سيرهم إلا هذا التاريخ الحافل للأمة المغربية المجيدة. فإذا افتخرت كل أمة بما امتازت به، افتخرنا نحن المغاربة بروح البطولة التي سادت تاريخنا والتي يجب أن تسود مستقبلنا.